بمناسبة الفيضان المبارك

النيل

للأديب حسين شوقى

عند ما انتهى المصريون من تشييد معبد الكرنك الفخم، تكريماً للآله (آمون)، دعا (آمون) الآلهة الآخرين إلى اجتماع خاص ليختاروا أحسن هدية تقدم لبنى مصر مكافأة لهم على عملهم، ولا سيما أن المصريين ما برحوا يبنون مثل هذه المعابد الشاهقة لآلهتهم من آن لآخر . . . فاقترح (هوروس) الآله الشاب أن تقدم الى فرعون آلة سينما لتسليته هو وأولاده فى ليالى الشتاء العابسة، ولكن الآله (سوكر) وكان شيوعى النزعة اعترض على هذا الاقتراح قائلاً: إن الشعب المصرى هو الذى أرهق فى بناء المعبد، فالهدية يجب أن تكون له لا لفرعون، فثار بعضهم على اعتراض (سوكر) وكاد المجلس ينقلب إلى عراك بين شيوعيين وفرعونيين، إلا أن (أنوبيس) — إلـه الموتى — صاح فيهم بصوته المزعج: أنصتوا إلىّ لقد وجدت ضالتكم، أقيموا للمصريين جبلاً من الذهب بجوار طيبة أو منفيس فانهم يعبدون هذا المعدن فى حياتهم، ويستصحبونه معهم فى قبورهم بعد مماتهم. ولكن (حوتيب) إلـه الحكمة اعترض على هذا فقال: إن وجود الذهب بمثل هذه الكثرة فى مصر يعلّم أهلها الجشع والكسل . . ثم هنالك الأجانب الذين يرهقون البلاد وهى فقيرة، فما بالك إذا عرفوا وجود مثل هذا الكنز؟ إن هؤلاء القوم لاحدّ لطمعهم، تصوّر انهم أنشأوا بوارج فى السموات ليستولوا بها على عالمنا العلوى بعد ما انتهوا من الأستيلاء على الأرض؟

ثم رأى إلـه ثالث غرس غابات فى مصر حتى تخف حرارة الجو فى الصيف، ولكن (ست) وكان إلـها أنانياً صاح: هل جننت حتى ترى مثل هذا الرأى؟ ألا تدرى أن الجو إذا رطب صارت هيا كلنا رماداً فى سنين قليلة . ؟

ثم نهض (آمون) الآلـه الأكبر الذى لازم السكوت طول الحديث وقال: أبنائى الأعزاء لاتتعبوا أنفسكم، ولاتجهدوا قرائحكم، لقد وجدت ما تنشدون وعرفت أحسن هدية تقدم لمصر ولشعبها الوفى، سأعطيها حياة هنيئة سعيدة، سأعطيها نهراً عظيما ينتفع به الحاكم والمحكوم، الانسان والحيوان على السواء. سأعطيها وادياً خصباً . . سأعطيها النيل . .

فوافق الآلهة باجماع الآراء على هذا الرأى المفيد، ثم استمر (آمون) قائلاً: وسندعو الآلهة الأجانب إلى الاحتفال بهذا الحادث الجليل، ثم جلس (هوروس) الآلـه الشاب الذى كان يقوم بأعمال السكرتارية فى المجلس، بناء على اشارة من الرئيس، إلى آلته الكاتبة فكتب الدعوات على وجه السرعة، ثم ناولها إلى (آمون) فمهرها بخاتمه، ثم أعطيت إلى (إبس) الآلـه الطائر فحملها فى منقاره وطار بها إلى الأقطار الأجنبية . . بعد ذلك أخذوا يبحثون عن المكان الذى يبدأ منه النهر فرأى أحدهم أن تكون بدايته أسوان، ولكن الحكيم (حوتيب) اعترض مرة أخرى قائلاً: إن مصر سوف يزيد عدد سكانها مع الزمن، فيحسن لذلك أن نعطى لها فسحة . . وبعد البحث اختيرت إحدى بحيرات بلاد (البونت) المقدسة لارتفاعها، ولتكون تحت إشراف الآلهة ورعايتها . . ثم جاء يوم الاحتفال وكان يوماً فريداً فى التاريخ، شرب فيه الآلهة كثيراً من نبيذ قبرص اللذيذ الذى جاء به (دينوزيس) إلـه الخمر الأغريقى هدية (لآمون)، كما أن (إيزيس) الآلـهة الساحرة قامت بألعاب سحرية مدهشة سرّ لها الناظرون، منها أنها قطعت بالسكين رأس دجاجة، ثم أشارت بعصاها إلى ذلك الرأس فعاد فالتحم بالجسد. وقد أعجب بهذا المنظر، بصفة خاصة، (بعل) إلـه آشور الكبير فأخذ يضحك ملء شدقيه . . ثم قصد الجميع إلى جبل قائم بجوار البحيرة، فأشار (آمون) إليه بيده وأخذ ينادى أرواح الماء بصوت عظيم يشبه الرعد، فتفجرت المياه نقية عذبة من الصخور . . فى جلال وروعة . . وكان (بنتاؤر) الشاعر، البشرى الوحيد الذى دعى إلى الحفلة، ليخلد على قيثارته ذلك اليوم المهيب، ولكنه أرتج عليه من هيبة المنظر وظل صامتا لحظة، وقد اخضلت عيناه بالدمع، ولم تحل عقدة لسانه إلا بعد أن شرب جرعة من ماء النيل، فأنشد: «سلامٌ عليك أيها النيل! يامن يتفجر من الصخر حياة ويسراً! إنك حينما تهبط تخضّر الأرض، كما أن عيدان القمح تنحنى لك إجلالاً، وتقدم لك بذورها قرباناً . . إنك تخلق للصانع العمل، وللأرض الغبطة. كما أن كل معدة تسر لقدمك، كذلك يهتز كل منكب من شدة الفرح . . دم أيها النيل حياة لمصر ويسراً للمصريين!»

فصاح الحاضرون: آمين! آمين!

حسين شوقى